العاذلة في خمريات الأخطل بوصفها معادلاً موضوعياً

م. م. هدى غازي
الجامعة المستنصرية/ كلية التربية

المقدمة :

أفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد على آله وصحبه أجمعين .

الصورة الحية التي وجدناها في خمريات الأخطل دفعتنا لسبر أغوارها والوقوف المتكرر له عند هذه اللفظة ، خلق لدينا الفضول في الكشف عن أسبابه والوقوف على أهم أهدافه وقضاياه الفنية فجاءت فكرة دراسة العاذلة كمعادلة موضوعي لذات الشاعر ، إذ ذكرت العاذلة من شعر الأخطل في تسع قصائد ، فجاءت دراستنا لها على ثلاث محاور :

المحور الأول : تناولنا فيه العاذلة في مقدمات قصائده .

المحور الثاني : عاذلته في حب الخمر

المحور الثالث : لأغراض المتنوعة من غزل ومدح .

ثم جاءت الخاتمة والتي شملت ملخص البحث وتقديم وتمهيد أوضحنا فيه اللوم لغة واصطلاحاً .

التمهيد

وجدنا إنه من الضروري أن نعرض لمعنى العاذلة اللغوي لنرى مدى ارتباطه بالمعنى الذي تناوله في أشعاره فالعذل يعني ((اللوم . عذله يعذله عذلاً ، وعذله فاعتذل وتعذل : لامه فقبل منه واعتب ، والاسم العذل ، وهم العذلة والعذال والعذل ، والعواذل من النساء جمع العاذلة ، ويجوز العاذلات ، عن أبي الإعرابي العذل ، الإحراق فكان اللائم يحرق ، بعذله قلب المعذول))[١] .

وقيل لذعه بلسان : اوجعه بالكلام [٢] فالعذل يعني الأجراف تارة واللوم تارة اخرى ، وهو يشير أيضاً إلى اللوم على الاسراف في الخمر ،الكرم ، وهذه هي المعاني التي سوف نتطرق إليها إن شاء الله .

اصطلاحاً :

إن مادة عذل ونعني بها احراق قلب المعذول عن طريق [٣] عاذلته بوصفها موقفاً تفرضه قناعات العاذل ومبادئه والتي غالباً ما لا تتلائم مع قناعات وقيم المعذول وتتمثل في اغلب الاحيان بصيغة الحوار [٤] ، وهذه العاذلة التي تمثل لدى شاعرنا النفس اللوامة المعادلة موضوعياً لعاذلته وذلك ((لأنها تعتبر السبيل الوحيد للتعبير عن العاطفة بشكل فني هو بإيجاد معادلاً موضوعياً لها))[٥] وستبقى العلاقة بين العاطفة المستقرة ، وهي حبة للخمره ، للجود للقبيلة ، للفخر ، في حقيقة الشاعر وبين الشعور المختبئ وراء الصور والعبارات لذات الشاعر نفسه وهي (العاذلة) هو مصدر فكره المعادل الموضوعي في شعره والتي تتفق تماماً مع القاعدة الفيزيائية التي مفادها .

أن لكل فعل رد فعل معاكس له في الاتجاه مساوٍ له في القوة .

المحور الاول :

تكاد تكون مقدماته تناصاً فكرياً متداخلاً بينه وبين عاذلة حاتم الطائي [٦] إذ يقول فيها [٧]

أعاذلتي اليوم ويحكما مهلاً وكفا الاذى عني ، ولا تكثرا عذلا
ذراني تجد كفي بمالي فانني سأصبح لا استطيع خوداً ولا نحرا
إذا وضعوا بعد الضريح جنادلاً علي وحلب المصه والرملا

يمثل له الضياع فعند حديثه عن الكرم ما هو إلا تورية يقصد بها سوء حاله وندمه على ما هو عليه من ضياع يحق لنا هنا أن نسأل ... لماذا أتخذ من العاذلة محركاً لعرض أفكاره وهل سار على منهجية الشعراء الفرسان [٨] وخاصة في قصائد الكرم ؟

نعم هو شاعر مجد وإن تأثر بمن قبله فهذا لا يعني أنه لا يستطيع الابداع بل هو على العكس نرى أنه من خلال حوارة بين لنا تطور فلسفة الكرم من عصر ما قبل الاسلام إلى ما بعده وبين أن الفرق بين الدهر الذي يفني كل شيء وبين الحقيقة الدينية التي مفادها أن المال وسيلة للكرم والتخلص من الفناء ، وولسنا هنا نبحث عن تطور فلسفة الكرم بقدر ما نريد الوصول إلى حقيقة أن نفسه اللوامة هي للعادل الموضوعي لعاذلته .

ثم يستمر في سرد حالته وأن ماله سيأوول إلى الوارث وزوجتي لغيري ثم يعود مرة أخرى لتحريك الحوار فيقول [٩]

أعاذل إن النفس في كف مالك إذا ما دعا يوماً ، أجابت له الرُسُلا
ذريني فلا مالي يرد منيتي وما إن أرى حيًّا على نفسه قُفلا

فشاعرنا يحس بعبثية الحياة فلا فائدة من التعب لأن ثمرته ستؤول إلى غيره ، بعد مفارقته للحياة لذلك فهو لا يكترث بهذا اللوم ، والعذل الذي اتخذه منفذاً لرثاء ذاته ونرى فيها شبهاً كبيراً بقول الرسول :

((يقول ابن آدم مالي ، مالي قال : وهل لك يا ابن آدم من مالك ما اكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت))[١٠] .

فينتفض الشاعر على حاضرة وخصوصاً في موضوعات الكرم هذا الحاضر الذي تمثل له وتفهمه من خلال حديث رسول الله وتقاليد الدين الاسلامي الذي يحث على الاقتصاد فكأن نفسه اللوامة وعاذلته تطالبه بالاقتصاد فيقول : [١١]

إذا لا أطـــاوع أمـــر العـــاذلات ولا ابقـي علـى المـال ، إن ذو حاجـة سـالا

فكرمه شمل حتى أعداؤه وقد أبين منن الصغر والميلاد فمن خلال عاذلته والحوار معها نستطيع أن نسبر أغوار تجربته الشعرية وماذا يريد أن يوصل لنا بوصفها رمزاً يحرك هواجسه إذ وضع أمامه هدف وأكده بتلك الصورة المتكررة للعاذلة فكان التكرار أداة بالغة الأهمية أعطته حيزاً كبيراً يستعملها ويفرغ فلسفته في الحياة فمن الملاحظ جيداً إن لفظة العاذلة ، عاذلتي ، العاذلات ، العاذل تمتلك صيغة واحدة وصورته واحد لا يتغير فمن خلالها بين كرمه وحبه ولواعجه ورغبته بالبقاء والانتفاض على حاضره وخصوصاً في موضوعات الكرم هذا الحاضر الذي ثم يستمر في سرد حالته وأن ماله سأول إلى الوارث وزوجني لغيري ثم يعود مرة أخرى لتحريك الحوار فيقول[١٢] :

كاشـحُ معـرض عنـي، غفـرت لـه وقـد أبـيَّن مِنـه الضَـعنَ والمـيلا

المحور الثاني

عاذلتـــه فـــي حـــب الخمـــرة

يطلب منها مستفتحاً بألاّ بعدم لومه قائلاً [١٣] :

ألا تلـــوميني علـــى الخمـــر عـــاذلاً و لا تهلكينـــي ، إن فـــي الـــدهر قـــاتلا

اطل الدهر علينا برأسه الجاهلي من جديد : **(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)**[١٤] ، فموقفه من اللوم في وصفه للخمرة ، يصفه بالهلاك

ذرينـي فـان الخمـر مـن لـذة الفنـى ولـــو كنـــت موغـــولاً علـــى وادغـــلا

فأني شاربها مع القوم وإن لم يدعوني إليها

وإنـــي لشـــراب الخمـــور معـــذل إذا هـــرَّت الكـــاس الوخـــام التنـــابلا

استخدم صيغة اسم الفاعل شراب دلالة على المبالغة والاستمرار مثل لوام ومليم فبقدر ما هي تلومه وتعذله سيستمر في شربها معذل بصيغة المبالغة ومشاركة حتى وإن رفضني الكاس وكانت ثقيلة ومكروهة فأني شرابها أذن فأنه لا وجود هنالك لعاذل حقيقي ولكنه خلق هذه الذات ويرفض لومها فلا نجد من دعواتها إلا كلام فقط وأن الدهر هو الذي سيهلكه ويؤكد رفضه لها في الأبيات اللاحقة ثم يقول في تأثير الخمرة على شاربها [١٥] :

شـــربنا فمتنـــا ميتـــة جاهليـــة مضـــى أهلهـــا ، لـــم يعرفـــوا مـــا محمـــد
ثلاثـــة أيـــام ، فلهـــا تنبهـــت حشاشـــات انفـــاس اتتنـــا تـــردد
حينـــا حيـــاة ، أتكـــن مـــن قيامـــه علينـــا ولا حشـــر لنـــا بـــه موعـــد
حيـاه مراضـي ، قـولهم بعـدما صـحوا مـــن النـــاس شـــتى : عـــاذلون دعـــود
فقلنـــا لســـاقيا : عليـــك فعـــدينا إلا مثلهـــا بالامســـى فـــالعود احمـــد

ثم يستمر في وصفها وشكلها وتأثيرها نجد أنه هرب إلى عامل الخمرة الذي لا يلومه على ما يفعل واغرق فيها وارتحل داخل هذا العالم ثلاثة أيام . ولكنه صحا فوجد من الناس عاذلون وعود وعاد مرة أخرى والعود احمد كما يقول فكأنما صحا ليقول لنا أن هناك عاذلون وهو سيتحداهم ما هذا الإصرار على ذكر العاذل في كل إشعاره التي يذكر بهما الخمرة إن لم يكن القناع الذي يرتديه ويعبر من خلاله عن تجربته الشعرية فهي مقطوعة قصصية كان للعاذلون فيها الدور الثانوي ولكنه المحرك الحقيقي لهذه القصة التي أنتجها خياله الخمري الذي سيطير على شخوصها أو على شاعرنا بالذات وقد تدفعه الخمرة إلى إظهار بطولاته قائلاً [١٦] :

أعـــاذل ألا تقصـــري عـــن ملامتـــي ادعـــك واعمـــد للـــذي كنـــت افعـــل

ويقول في الخميرة أيضاً [١٧]

وقـــد شـــربت الخـــرم فـــي حانوتهـــا ولعبـــت بالقينـــات كُـــلُّ الملعـــب

تحدث لنا هاجياً مبتدأً إلى قصيدته بالحديث الشباب والغواني وحب الخمرة فنجد مفارقة في استعارة صوته الكلب ونجاحه للعواذل التي تلازمه في كل أحواله واستعماله لصيغة الجمع التي تدل على الكثرة والمشاركة واصفاً الاسلحة والخيول هاجياً ومتوعداً فجاءت الكلمة مصورة للحركة وأحوالها

المحور الثالث : العاذلة والاغراض الاخرى

قال متغزلاً [١٨] :

فقلت :

أقلـــوا اللـــوم لا تعـــذلونني هبلـتم هـل الصـافي مـن المـاء كالكـدر

أجانـــة فيهـــا الزجـــاج كأنهـــا طوامن من بنيان الماء من لحيه الثغر

ينتقل بنا من عالم المرأة إلى عالم آخر (الحاضر– الغائب) وهو عالم الخمرة ويذكر الادنون والصلابة الذين جانه قد يكون مسحوراً فمنهم .

فقلـــت أقلـــوا اللـــوم لا تعـــذلونني هبلـتم هـل الصـافي مـن المـاء كالكـدر

هنا عالم الجماعة تعذلوني ، انتقال من الغزل إلى الخمرة ويختم القصيدة بها وندمائه الذين معه ويصف قدحها الضخم وزجاجتها وذاته اللائمة التي تلازمه في كل احواله الحاضر ، من خمرياته وله أيضاً ومعه غزلية مدحية يقول فيها [١٩]:

فالقلـب عـابٍ ، وأن لامـن عواذلـه فـي حـبلهن اسـير مسـنح الجلـبُ

ويقول مادحاً [٢٠] :

اعـاذل مـا عليـك بـان ترينـي ابـاكير قهـوة فيهـا احمـرار

إن الأخطل قد أدرك تماماً أن علاقته مع اللائمة هي علاقة غير متكافئة ، فهي عاجزة على أن تردعه لأنها هي ذاته العاقلة فانه من مواجهتها بالتحول إلى المدح او وصف الكرم ليتخلص بما يذكره بواقعه البائس ومنها بأنه قادر على انتقاء الأشياء الجميلة من الطبيعة فهو بقي داخل عالم الخمرة لم يغادره ولكنه من خلال عاذلته التي ترفد هذا العالم اوجد لنفسه متنفساً للإبداع .

ويقول مادحاً ومفتخراً [٢١] :

أعـاذل نعـم قـوم الحـرب قـومي إذا تنـزل الملمـات ، الكِبـارُ

نضع أنفسنا أمام مفارقة حواريه فهو يضعنا أمام ((صورة مزدوجة على صفحة واحدة))[٢٢] .

فكأن نفسه تلومه اللوم القبلي الذي عاد إلى ذهنية الإنسان العربي مرة أخرى بصورة لا تكاد تختلف كثيراً عن صورتها في عصر ما قبل الإسلام فهي تحمل نزعة التعصب القبلي وتوضح معاني داخلية في نفسه عكسها من خلال حركتها الانفعالية داخل النص وإن حاول تجسيدها بشكل أو بآخر ، فمن المصطلح ذكر العاذل تسمعه يخاطب قيس ثم زفر فهو ينطق هنا

بناء على موروثه الجمعي الذي يحمل القيم والدلالات التي يصعب أن تطفو على المنطقة الشعورية إلا بباعث أو شحنه انفعالية [٢٣] فكان هذا الباعث هو نفسه اللوامة التي مثلت له بوصفها مفارقة ضمنية إذ مثلت صورة مزدوجة على لوحة واحدة فهو يعاني هنا من أزمة قبلية جعلت وتيرة زمن القصيدة يتكسر ولا يسير بخط مستقيم إذ ينفتح الحاضر على الماضي ثم يعود ثانية فبعد حديثه عن قبيلته وتجربته معها ينتقل إلى حاتم الطائي ثم يعود ليذكر حاضره الإسلامي وقضية قتل بنُجير . فعاذلته هنا هي الماضي المغترب عنه بكل صوره وبين واقعه القبلي الذي اطل برأسه القبلي من جديد بعد حروب الرده .

الخاتمة:

من كل ما تقدم يتبين لنا إن العاذلة في شعر ما قبل الإسلام كانت هي الصورة الحقيقية التي يتحاورها الرجل الكريم فكرمه السبيل الوحيد للخلود والبقاء بعد فناء كل شيء لذلك نجد صداها وفق هذا المفهوم مفترشاً جميع استعاراتهم كرم – غزل – خمر – شكوى من الشيخوخة خصوصاً ونجد إن البنية الفنية والموضوعية للقصيدة واحدة فلا يوجد هناك أية فواصل فعندما يبدأ الشاعر بعملية عرض فلسفة الكرم فهو في نهاية القصيدة يعود مرة أخرى معرجاً على عاذلته لتمتزج البداية مع النهاية من خلال خياله الذي يسيطر في نهاية على كل شيء .

أما عند جرير فأنه العاذلة هي نفسه اللوامة فهو يعلم جيداً أن ما بعد الفناء الدائم من جهنم لأن شارب الخمر لا يدخل الجنة ، فنجدها تتحول من المفهوم العام في الكرم إلى عاذلة خاصة إذ تعتبر رمزاً يبين من خلاله فلسفة الإسلام في العطاء والكرم إلى شخصية تتحرك من الماضي إلى الحاضر والمستقبل بينما يجرد العاذلة الخمرية من الماضي ليضعها في دائرة الحاضر البائس لذلك كانت العاذلة هي ذاته الممتعضة من الواقع ، إذ ينتقل من حديثه مع اللائمة إلى ما يثبته تجسيد ذاته أمامها وبذلك تتحقق لديه عملية انشطار نفسيه بين واقعه الفني الذي يعيشه في عالمه الخمري وبين خياله الفني ونفسية المفترضة التي يعرض من خلاله آرائه وما يزيد التعبير عنه وهي ذاتها نفس الشاعر ، فيتبين لنا إن العاذلة هي ذاته اللائمة في ضميره الحي وحاضرة الميت فيجب أن اعرج على اوجه الضعف في مواقف عاذلته فهي ليست المشاركة معه في عالمه بل هي المحفز له للحديث عن هذا العالم وهذه الشخصية هي نسجٌ من خياله ليس لها وجود حقيقي ويتضح لنا أن العاذلة هي واحدة متكررة من كل قصيدة على الرغم من اختلاف صيغها فتأتي بصيغة العاذلات – العاذلون – عاذلتي – عذلاً .

ومن أساليبها البلاغية هي كثرة استخدام النداء – ياء النداء – صيغ المبالغة – الاستعارة – التشبيه – المفارقة الحوارية .

وهناك معاذلاً موضوعياً آخر للخمره عند شاعر مُبدع هو ابو نواس ولكن خمرته كانت اشمل وأوسع فهي معاذلاً موضوعياً للثورة التي قادها في عصره حول ، موضوع عمود الشعر وللحديث بقية – إن شاء الله –.

---

(١) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (د ، ذ ، ل) .

(٢) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (ل ، د ، ع) .

(٣) لسان العرب ، مادة (عذل) .

(٤) ينظر: دراسات في الشعر العربي القديم ، بهجت عبد الغفور الحديثي: ٨٨-٩٠ .

(٥) آفاق في الأدب والنقد ، عناد غزوان : ١٨ .

(٦) ينظر: ديوان حاتم الطائي ، فوزي عطوي : ٧٤.

(٧) ديوان الاخطل : ١٩٢.

(٨) ينظر : مدخل إلى بنية القصيدة قبل الإسلام ، محمود الجادر، جامعة بغداد، مجلة أبحاث اليرموك، مج٦، ع٢، ص٨٠ .

(٩) ديوان الأخطل: ١٩٢-١٩٣

(١٠) صحيح مسلم : ٩٤/١٨ .

(١١) ديوان الأخطل ١٩٨ .

(١٢) ديوان الاخطل : ١٩٩ .

(١٣) الديوان : ٢٠١ .

(١٤) الجاثية : ٢٤.

(١٥) الديوان : ٧٢ .

(١٦) الديوان : ٢١٥ .

(١٧) الديوان : ٤٢ . القينات : الجواري ، المغنيات.

(١٨) الديوان : ص١٤٧ .

(١٩) الديوان : ٤٥. العاني: الأسير : منح : سهل القياد .

(٢٠) المصدر نفسه : ص١١٧ .

(٢١) الديوان، ص١٢٤. الملمات : النوازل الشديدة الواحدة : نازلة .

(٢٢) المفارقة ، عبد الواحد لؤلؤة ، ص٥٦ .

(٢٣) ينظر الاتجاه النفسي في نقد الشعر، عبد القادر فيدوح : ٢٩٣ .

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم .**
- آفاق في الأدب والنقد ، عناد غزوان ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط١، بغداد، ١٩٩٠.
- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ، أطروحة دكتوراه ، عبد القادر فيدوح ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٢.
- دراسات في الشعر العربي القديم ، بهجت عبد الغفور الحديثي ، بغداد، مطابع التعليم العالي، ١٩٩٠.
- ديوان حاتم الطائي ، مع دراسة أدبية مفصلة عن الجود والأجواد في تاريخ الأدب العربي، بقلم الدكتور فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت– لبنان ، ١٩٦٩.
- ديوان الأخطل ، قدم له وضبطه وشرحه ووضح فهارسه د. صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- صحيح مسلم ، شرح النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، ط٢، ١٣٩٢هـ– ١٩٧٢.
- لسان العرب ، ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، دار بيروت، ١٩٥٥ .
- موسوعة المصطلح النقدي، المفارقة وصفاتها ، تأليف : دي سي سوسير، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ، دار المأمون .

الدوريات :

- مدخل إلى بنية القصيدة العربية قبل الإسلام، محمود الجادر، جامعة بغداد، مجلة أبحاث اليرموك ، مج٦، ع٢ .